التاريخ والعلوم الإنسانية، أية علاقة؟

Histiry and human sciences, what relations ?

د. محمد سليماني، باحث وأكاديمي-المغرب.

ملخص: إن التساؤل عن قيمة التاريخ بين مختلف العلوم هو بحث في مكانة العلم التاريخي بين العلوم الإنسانية الأخرى وأشكال علاقاته معها، إذ العلوم الإنسانية متداخلة من حيث موضوعاتها وفروعها ونتائجها وحتى مناهجها، وإذا كان تاريخ تطورها وسيرورتها التاريخية فرض بأن يكون كل واحد منها مستقلا عن الآخر، فإن هذا الاستقلال لا يعني سوى التنظيم العقلاني للمعرفة العلمية المتعلقة بالإنسان وذلك بتخصيص علم لكل مستوى من مستوياته.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، العلوم الإنسانية، المعرفة العلمية، الإنسان.

Abstract: The question about the value of history among other sciences is an investigation of the statues of historicism withim the ither human sciences and its oran froms of relations ti them, as human sciences are interconnected in their Topics, Branches, consequences and styles. Because their history of development and historical process requires that every one of them should be independant. Thus, this otonomy is a were logical formulation of the scientific knowledge related to human through opting a science to each level of him.

Keywords: history, human sciences, the scientific knowledge, human.

مقدمة:

من أهم أشكال العلاقات بين العلوم الإنسانية الفوائد المنهجية المتبادلة بينها، ونعني هنا أن المناهج والمفاهيم والتقنيات المؤسسة للبحث داخل كل علم من العلوم الإنسانية تكون قابلة في عدد من الحالات لنقلها إلى علوم أخرى، ولاستخدامها في تفسير ظواهر غير التي استمدت منها في الأصل ووضعت من أجل تفسيرها، وفي هذه الحالة، فإن الفائدة المنهجية لتلك المفاهيم والمناهج والتقنيات تصبح ذات مجال واسع، علما بأن القيمة الموضوعية لها ترتبط باتساع مجال تطبيقها، وحيث إن هذه الفوائد متبادلة بين العلوم الإنسانية، فإن كل واحد منها يكون مستقلا بذاته في بعض الحالات، ومصدرا لفوائد منهجية في بعض الحالات الأخرى، وغايتنا هنا أن نوضح هذا الأمر بالنسبة لعلم التاريخ، ونبرز أهمية علم التاريخ والدور الذي لعبته الدراسات التاريخية في نشأة العلوم الإنسانية وتطورها.

لقد نشأت العلوم الإنسانية مع عصر النهضة الأوربي، وعرفت أوج تطورها خلال القرن التاسع عشر حيث تعاقب ظهور العلوم الإنسانية المستقلة عن التأمل الفلسفي، وكان من اللازم تجاوز عدة عوائق إبستمولوجية وتوفر عدد من الشروط لقيام هذه العلوم، وكان العائق الأساسي هو بقاء الإنسان موضوعا متعاليا على البحث العلمي، بالإضافة إلى شروط أخرى لم يتم توفرها إلا بصورة تدريجية(Georges Gusdorf, 1974, p187) .

كان من بين فروع الدراسات التاريخية التي لعبت دورا مهما في تقريب الإنسان من أن يكون موضوعا لدراسة علمية، هذا العلم المدعو بالتاريخ الطبيعي، إذ ألف "بوفون Buffon" في القرن الثامن عشر كتابا في هذا المجال عنونه ب" التاريخ الطبيعي للإنسان"، وكان هذا الكتاب خاصا بدراسة الإنسان من حيث عاداته وتقاليده، وتوالت بعد ذلك دراسات ساهمت في إلقاء الضوء على تاريخ النوع البشري ومهدت لتقدم الدراسات الطبية، ولازدياد الوعي بضرورة تأسيس علوم تختص في دراسة الإنسان(محمد وقيدي، 1983، ص73).

هذا من جهة، ومن من جهة أخرى كان لتطور المعرفة التاريخية بصفة عامة أثر على تطور العلوم الإنسانية، إذ أن ميزة المعرفة التاريخية أنها تقودنا أكثر من غيرها إلى إضفاء النسبية على الظواهر الإنسانية، فعبر الدراسات التاريخية تعلم العقل الإنساني كيفية النظر إلى كل الظواهر التي يدرسها سواء كانت طبيعية أو إنسانية، وذلك بوصفها ناتجة عن تطور ينبغي دراسة مراحله ورصد التحولات التي تقع على الظاهرة في كل مرحلة من هذه المراحل، كما أن هذه المعرفة التاريخية تمهد النظر إلى الحضارة الإنسانية كنتاج للواقع الإنساني المتطور، وتدفع إلى البحث في الماضي لمعرفة أصول الحاضر ولمعرفة دلالة كل مرحلة ضمن سلسلة الوقائع التي يتشكل منها تاريخ جماعة بشرية محددة أو حضارة معينة، وإذا كان الوعي التاريخي يبدو لنا اليوم عنصرا طبيعيا وجوهريا من ثقافتنا، وإذا كان ذلك قد ينسينا أن هذا الوعي حديث النشأة فإن هذا كله لا ينبغي أن ينسينا أن التقدم في هذا الوعي كان من بين العوامل

التي ساهمت في العصر الحديث في بداية نشأة العلوم الإنسانية (Georges Gusdorf, 1974, p163).

في الواقع، هناك فائدة منهجية أخرى للدراسات التاريخية ساهمت في تطوير العلوم الإنسانية، وهي ظهور فروع مختصة في دراسة بعض الظواهر التي تشكل موضوعا لعلوم أخرى، إذ أنه فضلا عن الدراسات التاريخية المتعلقة بأشكال الدولة والسلطة في المجتمعات، وبتعاقب هذه الأشكال في التاريخ الخاص بكل مجتمع أو في مجموع التاريخ الإنساني، فإن هناك دراسات تاريخية جهوية أصبح كل واحد منها فرعا من فروع العلوم الإنسانية المختلفة كتاريخ الوقائع الاقتصادية وتاريخ الأفكار الاقتصادية، وتاريخ المؤسسات المجتمعية، وتاريخ الفلسفة، وتاريخ الوقائع العلمية، وتاريخ الأفكار والنظريات العلمية، ثم تاريخ الفن، بل هناك تاريخ فرعي لبعض الظواهر الإنسانية كتاريخ الأمراض وتاريخ السجون.

هذا التطور الذي حدث للدراسات التاريخية الفرعية كان له دور واضح في تقدم العلوم الإنسانية المختلفة، إذ ساعد هذا التطور على تسريع نشأة الدراسات العلمية للظاهرة الإنسانية بصفة عامة، وساعد من جهة أخرى على تسريع تطور العلوم الإنسانية بعد بداية نشأتها في العصور الحديثة، وإذا كان مؤرخو العلوم الإنسانية يرجعون تأسيسها إلى القرن التاسع عشر بصفة خاصة، وإذا كانت نشأتها قد اقتضت النفاذ إلى الإنسان كموضوع بصفة متدرجة، فإن الدراسات التاريخية ساعدت على ذلك، ويمكننا في هذا المستوى أن نقول إنه إذا كانت الدراسات الطبية قد ساعدت بتقدمها على النفاذ إلى الإنسان بوصفه جسما حيا يتفاعل مع محيطه الطبيعي، فإن الدراسات التاريخية ساهمت في النفاذ إلى ظواهر الإنسان باعتباره كائنا مجتمعيا متفاعلا مع الظواهر والمؤسسات المجتمعية.

قد ينطبق ذلك في الواقع على كل الظواهر التي تدرسها العلوم الإنسانية الأخرى، إذ لو كنا مثلا بصدد دراسة الظواهر الاقتصادية، وكان تحليلنا لها نسقيا، أي هادفا إلى دراستها في ضوء العلاقات المتبادلة التي تربطها عند تواجدها ضمن بنية مجتمعية واحدة، فإننا بقدر ما ننجح في هذا التحليل ونستخلص منه النتائج اللازمة عنه، نعي في الوقت ذاته بالحاجة إلى دراستها في ضوء تطورها التاريخي، لأن هذا التحليل يبدو لنا مكملا لسابقه، إذ الظواهر الاقتصادية ليست نتيجة للعلاقات القائمة بينها في الحاضر فحسب، بل إنها ناتجة كذلك عن تطورات ماضية، وهذا ما يجعل المنهج التاريخي مفيدا في تحليلها، وما قلناه عن الظواهر الاقتصادية ينطبق على الظواهر المجتمعية سواء كان الأمر متعلقا فيها أو بمؤسسات أخرى، وليس المقصود من المنهج التاريخي هنا دراسة ظواهر مجتمعية في الماضي، بل ذلك المنهج الذي يستفيد منه علم الاجتماع في دراسته للظواهر الحالية بالبحث فيها في ضوء مكوناتها الماضية، أي بالنظر إليها بوصفها نتاجا لتطور معين، وقد كان لهذا المنهج التاريخي فوائده التي لا يمكن أن تنكر في فهم الظواهر المجتمعية.

تلك أمثلة من الظواهر الإنسانية التي كان للمنهج التاريخي فائدة في دراستها وإبراز جوانب من حقيقتها، ولكن هناك أمثلة أخرى تضاف إلى ما سلف ذكره من دراسة المعرفة في ضوء تشكلها التاريخي، وهو المنظور الذي لا يأخذ الأشكال العليا للمعرفة مطلقة وثابتة منذ البداية بدون تحولات أو تطورات، ومن ذلك أيضا دراسة اللغة في إطار هذا المنظور نفسه.

هذه الفائدة المنهجية التي ذكرناها للتاريخ، حين يعتمد عليه كمنهج لدراسة الظاهرة الإنسانية تبدو منسجمة مع النظر إلى الإنسان ككل باعتباره كائنا ذا بعد زمني، فالإنسان كائن تاريخي لأنه يحيا في الزمن ويسلك في إطاره ضمن المستويات المختلفة لفعالياته، ومن الطبيعي أن تكون كل الظواهر المنبثقة عن سلوكه نتاجا لتشكل تاريخي، ومن الطبيعي كذلك أن يكون المنهج الذي ينظر إلى تلك الظواهر من زاوية تطورها في الزمن ذا صلاحية لا يمكن الاستغناء عنها في تحليلها.

أما عند تأملنا لما قلناه في السابق عن علم التاريخ، يبدوا لنا أن هذا العلم أساسي وكان مدخلا لإضفاء النسبية على الظواهر الإنسانية، وسمح عبر ذلك بظهور التفكير في هذه الظواهر وفق المنهج العلمي الذي يخالف طريقة التفكير الميتافيزيقية، إذ كان من اللازم كما رأينا أن تنفذ المعرفة العلمية إلى الإنسان من حيث هو جسم، وهو ما ساعدت عليه الدراسات البيولوجية والطبية، كما كان من اللازم أن تنفذ إلى سلوكه العقلي والنفسي والمجتمعي، وهذا ما تحقق بفضل العلوم الإنسانية التي كان التاريخ مدخلا إليها، لكن هذا الوجه الذي يظهر به التاريخ يجعله يبدو في الوقت ذاته بوصفه منهجا عاما لدراسة كل الظواهر الإنسانية مادام لكل ظاهرة منها تاريخ تحققت فيه تطوراتها، فكل الأفكار والوقائع الإنسانية في حاجة إلى دراستها وفق منهج تاريخي لفهم حقيقتها المنبثقة عما عرفته من تطورات.

عند انتقالنا لتصور ابن خلدون لعلم التاريخ، نجده يعتبره من العلوم المصنفة النسقية التي لها مكانة مهمة في تطور العلوم الإنسانية، فابن خلدون لا يزعم بأنه واضع علم التاريخ، إذ يعترف بوجود تقليد سابق عليه في الكتابة التاريخية في الثقافة الإسلامية وخارجها، فهو يؤكد أن التاريخ **"أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق، وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها"**(ابن خلدون، 1975، ص4) .

إذا كان ابن خلدون يعترف بوجود تقليد عريق في الكتابة التاريخية ضمن الثقافة الإسلامية، فإنه ينتقد الطريقة المتبعة في هذه الكتابة وهي طريقة الرواية، هذه الطريقة التي أراد ابن خلدون نقدها نابعة من التبعية التي كانت للتاريخ للعلوم الشرعية، إذ كانت هذه العلوم قائمة على منهج الإسناد، وهو الذي يقود على صعيد التأريخ إلى منهج الرواية، لقد كان ابن خلدون يهدف إلى التجديد في هذه الطريقة، وذلك بنقل التاريخ من علم يعتمد منهج الرواية إلى علم يعتمد التعليل، كما أن ابن خلدون يعتبر أن تصوره لعلم التاريخ هو الذي قاده إلى تأسيس علم جديد هو العمران

البشري أو الاجتماع الإنساني، فإذا كان ابن خلدون ينعت التاريخ بكونه علما عريقا ويعي جيدا بأنه لا يجدد فيه إلا على مستوى المنهج، فإنه عند الحديث عن علم العمران يعبر عن وعيه بجدة هذا العلم، وبكونه هو الذي يضع أسسه ويعين موضوعه ومسائله وطرق البحث فيه، وحسب ابن خلدون دائما فإن التاريخ ينفع في العظة والعبرة، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لنتعلم، وندرس سير الأنبياء لنتأسى بهم، وندرس تجارب الأمم ونرى ما وقعت فيه من الأخطاء لننجو بأنفسنا من الزلات ومواطن الضرر(حسن مؤنس، 2001، ص16).

كما أن الفيلسوف أوغست كونت في القرن التاسع عشر قام بإنجاز تصنيف للعلوم ذكر فيها علوما ستة أساسية هي: الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ثم علم الاجتماع، وكما نلاحظ فإنه لا وجود للتاريخ ضمن لائحة العلوم التي كان هذا الفيلسوف يرى أنها تشكل نسق المعارف الوضعية، أي التي بلغت من حيث تطورها المرحلة العلمية من تطور العقل الإنساني في مجالها، غير أن عدم ذكر التاريخ ضمن لائحة العلوم الوضعية لم يكن غيابا مطلقا لقيمة التحليل التاريخي للظواهر الإنسانية، فضمن العلوم النظرية الأساسية التي يذكرها أوغست كونت لا يوجد إلا علم إنساني واحد هو علم الاجتماع، وهذا لا يعني إغفال العلوم الإنسانية الأخرى، فالأمر بالنسبة لأوغست كونت يعني مطابقة الظاهرة الإنسانية للظاهرة المجتمعية، وهو ما يقود ضمنيا إلى اعتبار كل العلوم الإنسانية الأخرى فروعا لعلم الاجتماع، ومن جهة أخرى، فإن أوغست كونت يقسم علم الاجتماع إلى قسمين هما علم الاجتماع السكوني، أي الذي يدرس الظواهر المجتمعية في إطار نسقي يأخذ بعين الاعتبار العلاقات المتبادلة بينها ويفسرها في ضوء هذه العلاقات، وعلم الاجتماع الدينامي الذي يأخذ بعين الاعتبار التطورات الحاصلة في الظواهر ويفسرها في ضوء هذه التطورات(Augeste Comte, 1936, p61)، ويمكن أن نعتبر بالتالي أن علم الاجتماع الدينامي فرع يعتمد على تطبيق المنهج التاريخي.

نلاحظ كذلك أن أوغست كونت وهو يتحدث عن جملة الممهدين لنشأة علم الاجتماع كما عمل هو على تأسيسه، يذكر منهم عددا من رواد العلوم الإنسانية المختلفة ومن بينهم مؤرخين، وهذا يدل على أن أوغست كونت كان يعتبر أن تقدم الدراسات التاريخية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر من ممهدات نشأة الدراسة العلمية للظواهر الإنسانية التي تعود في نهاية الأمر إلى علم الاجتماع، حيث يكون المنهج التاريخي أحد المناهج المتبعة في هذه الدراسة، كما أكد أوغست كونت أيضا أنه لا يمكن فهم أية ظاهرة ولا أي مفهوم دون الرجوع إلى تاريخهما.

كما يرى باحث آخر وهو لوفيفر أن المادية التاريخية لا تطابق أي واحد من العلوم الإنسانية التي نعرفها اليوم، حتى وإن بدا أن أبحاث ماركس تلامس قضايا هذه العلوم، ولكن رغم ذلك، فإن لوفيفر لا يتردد في جعل التاريخ من أهم العلوم النظرية التي تستند إليها المادية التاريخية في تفسيرها للظواهر الإنسانية (Raymond Aron, 1967, p145).

كل ذلك لا يعني بتاتا أن القرن العشرين لم يشهد إلا التصنيفات التي تجعل التاريخ علما نظريا أساسيا بين العلوم الإنسانية المختلفة، بل إذ أن بياجي Piaget يتبنى في تصنيفه للعلوم وجهة مغايرة، فالتاريخ يوجد عنده من بين ثلاثة أنواع من الدراسات رأى بياجي أنها غير قابلة لأن تدمج ضمن العلوم الإنسانية.

ويعتمد بياجي في إقصائه لبعض المعارف من مجموعة العلوم الإنسانية، على اعتبار أن العلم هو ما يبحث عن اكتشاف القوانين الطبيعية للظواهر، وهكذا فإنه يبعد الفلسفة لعدم توفر شروط الصفة العلمية فيها من تعيين دقيق للموضوع وبناء لمنهج نوعي وحصول على نتائج متفق حولها، كما يبعد بياجي عن نسق العلوم الإنسانية الدراسات القانونية من حيث إن القوانين التي تبحث فيها ليست من طبيعة الظواهر، بل هي قواعد سلوكية متواضع عليها داخل مجتمع معين. أما التاريخ فإن بياجي يبعده عن مجال العلوم الإنسانية لاعتبار أن الدراسات التاريخية التي تدرس موضوعها عبر تطوره في الزمن، وتجعل مهمتها الأساسية هي إعادة بناء ذلك الموضوع في الحاضر، لا يمكن اعتبارها علما لأنها لا تبحث عن قوانين، فالمؤرخ حين يحصر مهمته في إعادة بناء أحداث الماضي لا يبحث عن قوانين، وحتى عندما نتحدث بصدد التاريخ عن قوانين، فإن ذلك لا يكون إلا بصفة مجازية ، يقول بياجي في هذا الإطار :**"إننا نتحدث حقا في الغالب عن قوانين التاريخ، ولكن هذا الأمر إما أن يكون مجازا في التعبير، ويقصد منه أن الحاضر لا يقبل الفهم دون معرفة تاريخيته، وإما أن يكون فعلا متعلقا بعلاقات وظيفية (كحالة التعاقب المنتظم نسبيا للمراحل المشتركة للثورات السياسية المختلفة)، وهو يدخل حينئذ في مجال علم الاجتماع الذي يدرس تطور الظواهر والذي يقدم له التاريخ بنسبة تكون له عمادا لا غنى عنه" (**Jean Piaget, 1967, p116).

كما يرى بياجي أيضا مع ذلك أن الدراسات التاريخية التي لا يمكن اعتبارها في حد ذاتها علما يمكن أن نصنفها ضمن مجموعة العلوم الإنسانية، ويمكن أن تصبح كذلك عندما نطبق عليها مناهج العلوم الأخرى كعلم الاجتماع أو علم الاقتصاد، بتعبير آخر فالمؤرخ الذي لا يمكن أن يكون عالما عندما يقتصر على إعادة بناء الماضي يصبح عالما يتخذ موقفا في دراسته لظواهر الماضي موقف عالم الاجتماع أو عالم الاقتصاد، إذ التأريخ لا يتخذ الصفة العلمية في نظر بياجي إلا عندما يستعين منهجيا بعلوم إنسانية أخرى، ولكنه في صيغته التي يكون فيها مجرد استعادة لأحداث ماضية لا يكون جديرا بأن يعد علما نظريا من بين العلوم الإنسانية.

خاتمة:

كخلاصة لما سبق التطرق إليه، نستنتج أن التاريخ علم يدرس وقائع الحياة الإنسانية في الماضي، وهي وقائع ناتجة عن الفعالية المختلفة المستويات للإنسان، إذ هي وقائع نفسية ومجتمعية ولغوية وسياسية واقتصادية وعلمية وتقنية وثقافية ورمزية، وهي كذلك إما وقائع عامة تهم المجتمع بأكمله أو تهم بعض قطاعاته ومؤسساته، ولذلك فإن تفسير هذه الوقائع لا بد

أن تتدخل فيه مناهج وتقنيات قادمة من العلوم الأخرى، وفي هذه الحالة فإننا نرى أن التاريخ علم أساسي من بين العلوم الإنسانية تتحقق الصيغة الكاملة لعلاقاته بهذه العلوم عبر تبادل الفوائد المنهجية معها، ويظهر علم التاريخ بهذا المعنى علما نظريا أساسيا يتعلق بالماضي، ويقود تعاونه مع العلوم الإنسانية الأخرى إلى أن يبدو بمثابة علم يعمل على استعادة الماضي ومحاولة إعادة بنائه اعتمادا على المعطيات التي يتوفر عليها، كما يبدو بمثابة دراسة اجتماعية واقتصادية ونفسية ولغوية ودراسة لكل مستويات الماضي، إذ التاريخ هو دراسة الماضي بمنهج تنطبق فيه كل التقنيات الملائمة لذلك والمستمدة من العلوم الإنسانية الأخرى(Paul Veyne, 1971, p141).

قائمة المراجع:

1.ابن خلدون عبد الرحمان(1975)، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان.

2.مؤنس حسن(2001)، التاريخ والمؤرخون: دراسة في علم التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ، الطبعة الثانية، دار الرشاد، القاهرة، مصر.

3.محمد وقيدي(1983)، العلوم الإنسانية والإديولوجيا، دار الطليعة، بيروت، لبنان.

4.Augeste Comte(1935), Cours de philosophie positive (1830-1842), Librairie Larousse, Paris.

5.Georges Gusdorf (1974), Introduction aux sciences humaines, Essai critique sur leurs origines et leur développement, édition Ophrys, nouvelle édition, Paris.

6.Jean Piaget(1967), Logique et connaissance scientifique, Encyclopédie de la Pléiade, édition Gallimard, Paris.

7.Paul Veyne(1971), Comment on écrit l'histoire, édition du Seuil, Paris.

8.Raymond Aron(1967), les étapes de la pensée sociologique, édition Gallimard, Paris.